

تمهيد

القدرة القصوى

«كل إنسان في هذه الحياة يملك أن يصنع مستقبه بيديه؛ كالتحات الذي يُشكّل من المواد الخام تمثالاً أو مجسماً، وثمة قدر مشترك بين هذا النوع من النشاط الفني وغيره من أفعال البشر، هو أننا نُؤكّد ولدينا القدرة على القيام به. أمّا مهارة تشكيل المادة على نحو ما نريد، فلا بد أن نتعلمها ونتعهدنا ونصقلها بعناية فائقة».

- يوهان فولفغانغ فون غوته

توجد صورة من صور القدرة والذكاء تتبوأ مرتبة عالية فيما يخص الإمكانيات البشرية؛ إنها مصدر أعظم الإنجازات والاكتشافات في التاريخ، وهي نوع من الذكاء لا يمكن تدريسه في المدارس، ولا يستطيع الأساتذة تحليله، ومعظم الناس - في مرحلة ما - لا بد أنهم لمحووا وميضه وعرفوه في حياتهم. يأتي هذا النوع من الذكاء إلينا دائماً حين نكون في موقف عصيب نواجه فيه ضغط نفاذ الوقت على موعد نهائي لإنجاز مهمة ما، أو حاجة مُلِحّة لحل مشكلة، أو أزمة من نوع ما. وقد يأتي نتيجة العمل المستمر في مشروع ما. وعلى أيّ حال، فإننا حين نكون تحت تأثير ضغط الظروف نشعر بنشاط غير عادي وتركيز ثاقب، وتصبح عقولنا في استغراق تام بالمهمة التي بين يدينا. هذا التركيز الشديد يثير أنواع الأفكار كلها، فتأتي إلينا فجأة ونحن على وشك الخلود إلى النوم، من حيث لا ندرى،

وكأنها قفزت إلينا من اللاوعي. في مثل هذه الأوقات، يبدو الأشخاص المحيطون بنا أقل مقاومة لتأثيرنا؛ وربما كان ذلك لأننا نوليهم انتباهنا، أو لأن لدينا قوة خاصة تدفعهم إلى احترامنا. صحيح أننا نواجه أعباء الحياة غالباً بصورة سلبية، بحيث نستجيب باستمرار لهذا الحادث أو ذلك، ولكن في هذه الأيام أو الأسابيع، نشعر أننا نُحدِّد الأحداث، ونملك تحقيق ما نريد.

يمكننا التعبير عن هذه القدرة على النحو الآتي: إننا نعيش معظم الوقت في عالم من الأحلام الداخلية، والرغبات، والأفكار التي تستهويننا، ولكن في هذا الطرف الاستثنائي من الإبداع، نكون مدفوعين بالحاجة إلى القيام بشيء ما ذي أثر عملي، فتجبر أنفسنا على الخروج من القوقعة الداخلية لأفكارنا المعتادة لكي نتصل - حقيقةً - بأشخاص آخرين من العالم الخارجي، فتبدأ عقولنا بالتركيز والفوص إلى أعماق شيء حقيقي بدلاً من التحليق هنا وهناك في حالة من التشبُّت الدائم، ويُخَيَّل إلينا - في مثل هذه اللحظات - أن عقولنا التي انقلبت إلى الخارج قد غشيها فيض من نور العالم المحيط بنا، وفجأة نبدأ برؤية تفاصيل دقيقة وأفكار جديدة، ونصبح أكثر إلهاماً وإبداعاً.

وما إن ينقضي الموعد النهائي، أو تنتهي الأزمة، حتى يبدأ هذا الشعور بالقوة واشتداد الإبداع بالتلاشي والتواري بعيداً، فنعود إلى حالة التشبُّت الذهني وفقدان الشعور بالسيطرة، ولدينا نملك تصنيع هذا الشعور، أو استبقائه مدة أطول... ولكن يبدو أنه من الغموض بمكان ما يجعله بعيد المنال.

إن المشكلة التي تواجهنا هي أن هذه الصورة من صور القدرة والذكاء؛ إمَّا أنها مهمة بوصفها موضوعاً للدراسة، وإمَّا أنها محاطة بمختلف أنواع الخرافات والمفاهيم غير الصحيحة، وهذا كله يزيدنا غموضاً؛ إننا نتصوَّر أن الإبداع والذكاء يأتيان من العدم، وأنهما ثمرة من المواهب الطبيعية، أو ربما نتيجة المزاج الجيد، أو بفعل مواقع النجوم والأفلاك؛ لذا سيكون مفيد جداً توضيح هذا الغموض بأن نُسَمِّي هذا النوع من الشعور بالقوة، ونعاين جذوره من أجل تحديد نوع الذكاء الذي يؤدي إليه، ونفهم كيف يمكن إيجاده والمحافظة عليه.

دعونا نستخدم على تسمية «الإتقان» على هذا الإحساس؛ أي الشعور بأن لدينا قدرًا أكبر من السيطرة على الواقع، وعلى الآخرين، وعلى أنفسنا. بالرغم من أن هذا الإحساس ربما يكون عابرًا لا نشعر به إلا مدة قصيرة، فإنه بالنسبة إلى بعض الأشخاص (الرؤساء الذين برعوا في حقولهم) طريقة حياة، وأسلوبهم المفضل لرؤية العالم، ومن الأمثلة على هؤلاء: ليوناردو دافينشي، و نابليون بونابرت، وتشارلز داروين، وتوماس أديسون، ومارثا غراهام. يُذكر أنه في أساس هذه القدرة توجد عملية بسيطة تؤدي إلى الإتقان، وهذه العملية هي في متناول كل منّا.

يمكن توضيح هذه العملية على النحو الآتي: لنفترض أننا بدأنا تعلم العزف على آلة البيانو، أو العمل في وظيفة جديدة تتطلب اكتساب مهارات معينة. بدايةً، ستكون حالتنا كحال الغرباء، وستكون توقعاتنا الأولية عن البيانو أو بيئة العمل مبنية على أحكام سابقة لا تخلو من الخوف والرهب، وحين نبدأ أول دروسنا في العزف فإن لوحة المفاتيح ستبدو مخيفة؛ لأننا لا نعرف العلاقة بين المفاتيح والأوتار والدواسة، وكل ما له علاقة بمجال الموسيقى، وكذا الحال بالنسبة إلى الوظيفة الجديدة، فإننا نجهل علاقات القوة بين الموظفين في بيئة العمل، وسيكولوجية الرئيس، والقواعد والإجراءات التي تُعد حاسمة للنجاح؛ إننا نعيش -وقتئذٍ- حالة من الارتباك والتشويش، وإن المعرفة التي نحتاج إليها في كلتا الحالتين تتجاوز مقدرتنا وطاقتنا.

بالرغم من أننا قد نقتحم هذه المجالات ونتلمس الأحوال المحيطة بها وكلنا شوق وإثارة لما يمكن أن نتعلمه أو قد نعمله بمهاراتنا الجديدة، فإننا سرعان ما ندرك ما ينتظرنا من مشقة العمل والتعلم، أمّا الخطر الكبير فهو أننا نستسلم سريعًا لمشاعر الملل، ونفاد الصبر، والخوف والارتباك، فننتوقف عن الملاحظة والتعلم، ونتوقف - تبعًا لذلك - العملية كلها عند هذا الحد.

ولكن، إذا نجحنا في التكيف مع هذه المشاعر، وسمحنا للوقت أن يأخذ مجراه، فإن شيئًا رائعًا سيبدأ بالتشكل. ومع مراقبتنا للآخرين وحدونا حدوهم، ستوضح لنا الأمور أكثر، ونبدأ تعلم القواعد وطريقة عمل الأشياء وتناغم بعضها مع بعض، وإذا واصلنا الممارسة

فإننا سنكتسب البراعة، ونقتن المهارات، ما يمكننا من مواجهة تحديات جديدة أكثر إثارة، والبدء برؤية ارتباطات وصلات كانت محجوبة عنا من قبل. بعد ذلك نبدأ اكتساب الثقة تدريجيًا بقدرتنا على حلّ المشكلات، أو التغلب على نقاط الضعف عن طريق المثابرة، وسننتقل في مرحلة معيَّنة من رتبة التلميذ إلى رتبة الممارس، ونبدأ تجربة أفكارنا الخاصة، والحصول على معلومات قيّمة من هذه العملية، مستخدمين ما تكوّن لدينا من معرفة متنامية بطرائق مبتكرة على نحوٍ متزايد، وبدلاً من الاكتفاء بتقليد الآخرين في طريقة عملهم سنبدأ استخدام أسلوبنا الخاص وطريقتنا الفردية.

وبمرور السنين، مع بقائنا مخلصين لهذه العملية، سنحقق قفزة أخرى تجاه الإتقان، بحيث لا تعود لوحة مفاتيح البيانو شيئاً خارجياً بل تصبح جزءاً داخلياً من كياناتنا متصللاً بنظامنا العصبي، ومنتهياً بأطراف أصابعنا، وسيتكوّن لدينا في ممارستنا المهنية، ووعي بدناميكية العمل الجماعي، وبحالة أوضاع العمل. وفي الواقع، فإنه يمكننا تطبيق هذا الشعور على الأوضاع الاجتماعية، والنظر إلى الناس برؤية ثابتة عميقة وتوقع ردود أفعالهم، ويمكننا أيضاً اتخاذ قرارات سريعة جدّ مبتكرة؛ فالأفكار تأتي إلينا مدعنة بعدما تعلّمنا القواعد جيداً حتى أمكننا خرقها أو إعادة كتابتها.

في هذه العملية التي أدّت إلى هذا الشكل النهائي للقدرة يمكننا تحديد ثلاث مراحل (أو مستويات) متميزة ومنفصلة؛ الأولى: التدريب المهني (التلمذة)، والثانية: الإبداع الفاعل (النشط)، والثالثة: الإتقان. في المرحلة الأولى نكون واقفين في الجزء الخارجي من مجال عملنا، ونحرص على تعلّم قدر ما نستطيع من العناصر والقواعد الأساسية، ولا نملك - وقتئذٍ - سوى تصوّر جزئي عن الميدان؛ لذا تكون سلطتنا محدودة. وفي المرحلة الثانية يمكننا بالكثير من الممارسة والانغماس في العمل رؤية مواطن الأمور، وكيفية ربط الأشياء ببعضها ببعض، فنخلص إلى تكوين فهم أشمل للموضوع. وتأتي مع الإدراك قوة جديدة؛ إنها القدرة على التجربة والتعامل المبتكر مع العناصر ذات الصلة. أمّا في المرحلة الثالثة فتبلغ درجة المعرفة والخبرة والتركيز حدّاً عميقاً؛ بحيث يمكننا رؤية الصورة كاملة وبوضوح تام. لقد استطعنا الوصول إلى قلب الحياة؛ إلى لبّ الطبيعة البشرية والظواهر الطبيعية، وهذا هو سبب الأحاسيس والأخيلة التي تُؤثّر في أعماق نفوسنا، والتي تخلفها رؤية الأعمال الفنية التي يبدعها الفنانون المهرة؛

ذلك أن الفنان يلتقط (يُثَبِت) في عمله شيئاً من جوهر الواقع والحقيقة، ويُسكِّله بصورة جميلة، وهذا هو سبب قدرة العالم المتألق على اكتشاف قانون جديد للفيزياء، أو تمكُّن المخترع، أو رجل الأعمال المبتكر من التوصل إلى شيء لم يتصوره أحد قبله.

يمكننا أن نُسَمِّي هذه القدرة حدساً، ولكن الحدس لا يعدو سوى إدراك مفاجئ وفوري لما هو حقيقي من دون الحاجة إلى كلمات أو صيغ؛ فالكلمات والصيغ قد تأتي لاحقاً، ولكن هذا البارق من الحدس هو ما يقودنا - في نهاية المطاف - إلى الحقيقة، ويُقَرِّبنا إليها حين تصبح عقولنا فجأة مستتيرة ببعض جزئيات من الحقيقة المخفية سابقاً عنا وعن الآخرين. بوجه عام، تملك الحيوانات قدرة على التعلُّم، ولكنها تعتمد كثيراً على غرائزها في قراءة محيطها وإنقاذ نفسها من الخطر؛ فعن طريق هذه الغريزة يمكنها أن تتصرف بسرعة وفاعلية، أمَّا الإنسان فيعتمد - بدلاً من ذلك - على التفكير والعقلانية في فهم بيئته، ولكن هذا التفكير ربما يكون بطيئاً؛ ونتيجة لهذا البطء فإنه يفقد فاعليته أحياناً. وللحقيقة، فإن عملية التفكير الداخلية الوسواسية تنزع - في معظمها - إلى فصلنا عن العالم، علماً بأن القوى الحدسية - على مستوى الإتيقان - هي مزيج من الغريزة والعقلانية، الوعي واللاوعي، والإنسان والحيوان؛ إنها طريقتنا لإيجاد ربط مفاجئ بالبيئة، والشعور أو التفكير في جوهر الأشياء. لقد كُنَّا نملك - في مرحلة الطفولة - بعضاً من هذه القدرة البديهية والعفوية، ولكنها طُمِسَتْ بفعل تدفق المعلومات التي غمرت عقولنا على مرَّ الزمن. أمَّا أصحاب الرياسة فقد عادوا بأنفسهم إلى هذه الحالة الطفولية؛ فأعمالهم تُظهر درجة من العفوية والاتصال باللاوعي، ولكن على مستوى أعلى بكثير مما لدى الأطفال.

إذا انتقلنا بوساطة هذه العملية إلى تلك النهاية فإننا نكون قد فعلنا القدرة الحدسية الكامنة في كل دماغ بشري، وهي القدرة التي يشهدها الواحد منَّا في لحظة عابرة حين نُركِّز وننهمك في العمل على حلِّ مشكلة أو إنجاز مشروع ما. وفي الواقع، فإننا نلمح غالباً ومضات من هذا القدرة حين يكون لدينا شعور بتوقُّع ما سيحدث تالياً في حالة معيَّنة، أو حين يقع في رَوْعنا فجأة الحل المثالي لمشكلة ما من دون سابق تفكير، ولكنها لحظات زائلة، ولا تقوم على أساس من الخبرة يكفي لجعلها قابلة للتكرار. وعندما نصل إلى مرحلة الإتيقان فإن هذا الحدس يصبح قدرة في تناول أيدينا تخضع لإرادتنا، فهو ثمرة الجهد المكتسب من عملية

مديدة. ولمَّا كان العالمُ يكافئُ الإبداعَ والقدرةَ على كشفِ جوانبِ جديدةٍ من الواقعِ فإنه سيَجلبُ لنا قوةَ عمليةٍ هائلةٍ ولا شك.

لتكن نظرتك إلى الإتقان بهذه الطريقة؛ إذ ما برحَ والرجال والنساء على مرِّ التاريخ يشعرون أنهم محاصرون بالقيود المفروضة على وعيهم، وافتقارهم إلى الاتصال بالواقع والقدرة على التأثير في العالم من حولهم، وقد ابتغوا كل أنواع الطرائق المختصرة لهذا الوعي الموسع والشعور بالسيطرة، وذلك بالاستعانة بمختلف أشكال الطقوس السحرية، والغيبوبة، والتعزيم، والمخدرات، ناذرين أنفسهم وحياتهم للكيميائ القدمية بحثاً عن حجر الفلاسفة؛ ذلك الشيء بعيد المنال الذي يمكنه تحويل أيِّ مادة إلى ذهب.

وقد استمر هذا النهم في الطرائق السحرية المختصرة حتى عصرنا الحاضر في صورة صيغ مبسَّطة للنجاح، أو بالكشف أخيراً - حسب ما قيل - عن الأسرار القديمة، ما يجعل أيَّ تغيير في السلوك سبباً في جذب الطاقة الصحيحة. والحقيقة أنه ثمة مقدار ضئيل من الحقيقة والتطبيق العملي في هذه الجهود كلها، مثل تشديد السحر على التركيز العميق، ولكننا، نخلص - في نهاية المطاف - إلى أن هذا البحث كله يتركز على شيء لا وجود له؛ أي الطريق السهل الخالي من الجهد نحو القدرة العملية، والحل السريع والسهل، أو لنقل الدُّورادو* العقل.

لهذا نجد الكثير من الناس يفقدون أنفسهم في هذه التخيلات والأوهام التي لا نهاية لها، ويتجاهلون القدرة الحقيقية التي يمتلكونها حقاً. وخلافاً للوصفات السحرية أو المبسطة، يمكننا أن نرى الآثار المادية لهذه القدرة في سجل التاريخ: في الاكتشافات والاختراعات العظيمة، وفي المباني الرائعة والأعمال الفنية المبدعة، وفي البراعة التكنولوجية التي نملكها، وفي أعمال العقل البارِع جميعها. ولا شك أن هذه القدرة تجلب لأولئك الذين يملكونها ذلك النوع من الاتصال بالواقع، وإمكانية تغيير العالم بصورة لم يكن السحرة والكهنة في الماضي يحلمون بها.

* تعني هذه الكلمة بالإسبانية «المنغى بالذهب»، وقد أطلقها الإسبان على زعيم قبيلة في أمريكا الجنوبية كان يغطي نفسه بالتبر ضمن طقوس دينية سنوية قرب مدينة أسطورية مليئة بالذهب والحجارة الكريمة، ثم نمت الأسطورة وانتشرت لتدفع بعدد من المستكشفين إلى البحث العقيم عن هذه المدينة الخرافية لتحقيق الثراء، ثم تحولت الكلمة لتدل على كل طريقة سهلة للشراء السريع، الموسوعة الحرة بتصرف. [المترجم]

وعلى مرّ القرون شيّد الناس جدارًا حول هذه البراعة الفائقة من الإلتقان، وأطلقوا عليها وصف العبقريّة، واعتقدوا أنه لا يمكن الوصول إليها، وكانوا يرون أنها نتاج الحظوة بموهبة موروثّة، أو مجرد المحاذات الصحيحة لأبراج النجوم، وجعلوا الأمر يبدو مثل السحر في الغموض والإبهام وصعوبة التحصيل، ولكن هذا الجدار هو جدار وهمي، وهذا هو السرّ الحقيقي؛ أي إن الدماغ الذي نملكه هو نتاج ستة ملايين سنة من التطور. وأكثر من أيّ شيء آخر، فقد كان تطوّر الدماغ مُعدًّا ليقودنا إلى الإلتقان؛ إلى القوة الكامنة داخل كل بني البشر.

تطوّر الإلتقان*

«على مدى ثلاثة ملايين سنة، كان الإنسان يعتمد على الصيد والجمع في حياته. وعن طريق الضغوط التطوُّرية لهذا النمط من الحياة ظهر - في نهاية المطاف - دماغ الإنسان الذي يتسم بالتكيف والإبداع، واليوم نقف وفي رؤوسنا أدمغة الصيادين الجامعين».

- ريتشارد ليكي

يصعب علينا أن نتخيّل الآن أن أقرب أسلاف الإنسان الذين غامروا بالخروج إلى السهول العشبية شرقي إفريقيا قبل نحو ستة ملايين سنة كانوا - على نحو لافت للنظر - مخلوقات ضعيفة وعُرضة للهجوم والافتراس؛ فقد كانت قاماتهم أقل من خمس أقدام، وكانوا يسيرون منتصبين القامة، ويمكنهم الجري على قدمين، لكن سرعتهم لم تكن تقارب السرعة الخائفة للحيوانات المفترسة التي كانت تطاردهم على أربع أرجل، كانوا أيضًا نحيلي الجسم، ولم تساعدهم أذرعهم كثيرًا على الدفاع عن النفس؛ لم تكن لديهم مخالب، أو أنياب، أو أيّ مادة سامة يستخدمونها حين يتعرضون للاعتداء. وقد اضطروا إلى الخروج إلى سهول السافانا المفتوحة لجمع الفواكه والمكسّرات والحشرات، أو جثث الحيوانات لأكلها، فأصبحوا فريسة سهلة للفهود وقطعان الضباع، وكان سهلًا تعرّضهم للانقراض بسبب ضعفهم وقلة عددهم.

* بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْبَيْنِ وَالرَّيْثُونَ ﴿٢﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٣﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٧﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٨﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

بالرغم من ذلك، وفي غضون بضعة ملايين من السنين (تعدُّ مدة قصيرة مقارنةً بالنطاق الزمني للتطوُّر)، فإن أسلافنا - على ضعف أجسامهم- نجحوا في تحويل أنفسهم إلى أعتى الصيادين وأكثرهم شراسة على سطح هذا الكوكب، فالإمَّ يُعزى هذا التحوُّل الذي يشبه المعجزة؟ تكهَّن بعض العلماء أن مردُّ ذلك هو وقوف الإنسان على قدمين، ما حرَّر اليدين لصنع الأدوات باستخدام الأصابع المرنة وقبضة اليد الدقيقة، ولكن هذا التفسير المادي وغيره من التفسيرات المادية فاتها السبب الأهم، وهو أن هيمنة الإنسان على الأرض، وبراعته الفائقة لا تتبعان من أيدينا بل من أدمغتنا، من تحويل عقولنا إلى أقوى أداة عرفتها الطبيعة؛ أقوى كثيرًا من أيِّ مَحَلَب. أمَّا السبب الجذري لهذا التحوُّل العقلي فيُعزى إلى الصفات البيولوجية- والبصرية والاجتماعية- التي جعلت الإنسان البدائي مصدر السلطة والهيمنة.

وفي الواقع، ينحدر أقرب أجدادنا من الرئيسيات التي ازدهرت ملايين السنين، والتي كانت تسكن أعالي الأشجار، ما ساعد على تطوُّر واحدٍ من أبرز الأنظمة البصرية في الطبيعة. ولكي تتمكن من التحرك بسرعة وكفاءة في هذه البيئة؛ فإنها طورت عملية شديدة التعقيد للتنسيق بين العين والعضلات، فتطوَّرت عيونها ببطء لتأخذ موقعًا أماميًا كاملاً في الجبهة (الوجه)، ما مكَّنها من اكتساب رؤية مجسَّمة باستخدام العينين معًا. وللحقيقة، فإن هذا النظام يُزوِّد الدماغ بمنظور ثلاثي الأبعاد يتميز بالدقة والتفصيل، وإن كان ضيق المجال نوعًا ما. إن الحيوانات التي تحظى بهذه الرؤية - مقارنةً بالحيوانات التي عيونها على جانبي الرأس، أو منتصف الجانب- هي غالبًا حيوانات متمرسّة في الافتراس، مثل البوم والقطط، وهي تستخدم هذه الرؤية الثاقبة في الانقضاض والتركيز على الفريسة. أمَّا القرود التي تعيش على الشجر فقد طوَّرت هذه الرؤية لغرض مختلف، هو التنقل بين فروع الأشجار، ورؤية الفواكه، والتوت، والحشرات بصورة أفضل. وطوَّرت أيضًا رؤية مفصَّلة بالألوان.

عندما غادرت أقرب أسلاف الإنسان الأشجار، وانتقلت إلى مروج السافانا المفتوحة، اعتمدت وضعية الوقوف باستقامة. ونظرًا إلى امتلاكها - سابقًا- نظامًا بصريًا مُحَكَّمًا؛

فإنها استطاعت الرؤية حتى مسافة بعيدة في الأفق (الزرافات والفيلة قد تقف على مستوى أعلى، ولكن عيونها تقع على جانبي الرأس، ما يسمح لها برؤية بانورامية واسعة خلاف الرؤية الأفقية لدى القردة والإنسان)، وقد مكنتها هذه الرؤية الأفقية من ملاحظة الحيوانات المفترسة الخطرة البعيدة فوراً، وكشف تحركاتها حتى في أوقات الشفق، وهذا الإنذار المبكر منحها بضع ثوانٍ أو دقائق تسمح لها بالتراجع إلى مكان آمن بعيداً عن الخطر. وبالمثل، فإذا أنعمت النظر فيما حولها فإنها تستطيع أن تُحدّد مختلف أنواع التفاصيل المهمة في بيئتها؛ مثل: آثار الأقدام، وعلامات الحيوانات المفترسة العابرة، وألوان الصخور وأشكالها، فضلاً عن التقاط هذه الصخور لاستخدامها أدوات في حياتها اليومية.

بُنيت هذه الرؤية الثاقبة لدى الرئيسيات - حين كانت تعيش على رؤوس الأشجار- من أجل السرعة؛ أي النظر والاستجابة السريعة. أمّا في السهول المعشبة المفتوحة فالأمر مختلف؛ ذلك أن اعتبارات السلامة والبحث عن الطعام تعتمد على الملاحظة المتأنية غير المتسرة للبيئة المحيطة، وعلى قابلية التقاط التفاصيل والتركيز على ما قد تعنيه؛ فقد اعتمد بقاء أسلافنا على شدة انتباههم، وكلما كانت نظرتهم أطول وأعمق كان تمييزهم الفرصة من الخطر أفضل وأدق. فإذا أجالوا النظر في الأفق بسرعة فإنهم سيشاهدون الكثير، ولكن هذا يرهق العقل بالكثير من المعلومات؛ أي التفاصيل الكثيرة جداً بالنسبة إلى هذه الرؤية الحادة. إن النظام البصري للإنسان ليس مُصمّمًا لاستعراض مساحات عريضة، مثل نظام البقرة البصري، بل للتركيز بعمق.

تتميّز الحيوانات بأنها حبيسة وقتها الراهن دومًا، ويمكنها أن تتعلم من الأحداث القريبة، ولكن انتباهها ينصرف سريعاً إلى ما هو أمام أعينها. وقد تمكّن أسلافنا - على نحو بطيء خلال حقب زمنية طويلة- من التغلب على هذا الضعف الحيواني الأساسي. وعن طريق النظر مدة طويلة كافية إلى أي شيء، ومقاومة كل ما يُشتّت الذهن- ولو بضع ثوانٍ- استطاعوا عزل أنفسهم عن محيطهم المباشر بعض الوقت، وتمكّنوا بهذه الطريقة من ملاحظة أنماط الأشياء، والتوصّل إلى تكوين عموميات عنها، والتفكير المُتقدّم أيضًا. لقد اكتسبوا فسحة عقلية مكنتهم من التفكير والتأمل، وإن كانت على أضيق نطاق.

لقد طوّر هذا الصنف البشري الأولي القدرة على الانقطاع والتفكير، فكانت له مزية أساسية في الكفاح من أجل تجنّب الحيوانات المفترسة، والعثور على الطعام، وقد ساعده ذلك أيضاً على الاتصال بواقع لا تملك الحيوانات سبيلاً للوصول إليه، وكان التفكير على هذا المستوى هو أعظم نقطة تحوّل منفردة في عملية التطوّر كلها؛ ظهور الوعي، والتفكير المنطقي العقلاني.

ثمّة مزية بيولوجية أخرى أكثر غموضاً من الأولى، لكنها لا تقل عنها أهمية في المضمون والأثر؛ فبالرغم من أن الرئيسيات كلها هي -أساساً- مخلوقات اجتماعية فإن أقرب أسلافنا (بسبب شدة الأخطار التي واجهوها في المناطق المفتوحة) كانت لديهم حاجة ملحة إلى تماسك المجموعة؛ إذ اعتمدوا على المجموعة لمراقبة خطر الحيوانات المفترسة وجمع الغذاء، وكان لدى البشر الأوائل عموماً صلات وتفاعلات اجتماعية متبادلة تفوق ما كان لدى الرئيسيات الأخرى. وعلى مدى مئات الآلاف من السنين، تطوّر هذا الذكاء الاجتماعي بصورة متزايدة ومعقدة، ما سمح لهؤلاء الأسلاف بالتعاون الوثيق فيما بينهم، ووفق فهمنا للبيئة الطبيعية، فقد اعتمد هذا الذكاء على الانتباه العميق والتركيز؛ فأبى خطأ في قراءة الأمارات الاجتماعية في المجموعة المتماسكة سيفضي إلى عواقب وخيمة ولا شك.

وعن طريق صقل هاتين المزيتين - البصرية، والاجتماعية- وتجويدهما تمكّن أسلافنا البدائيون من ابتكار مهارة الصيد المعقدة وتطويرها منذ نحو مليونين إلى ثلاثة ملايين سنة، وأصبحوا أكثر إبداعاً مع مرور الزمن، بحيث طوّروا هذه المهارة المعقدة إلى فن، وأضحوا صيادين مهرة، وانتشروا في مختلف أنحاء اليابسة الأوروبية والآسيوية، وتمكّنوا من التكيف مع أنواع المناخات جميعها. وفي أثناء عملية هذا التطوّر السريع نمت أدمغتهم إلى حجم دماغ الإنسان الحديث تقريباً، وذلك قبل نحو مئتي ألف عام.

في تسعينيات القرن الماضي اكتشفت مجموعة من علماء الأعصاب في إيطاليا شيئاً قد يساعد على تفسير هذه الزيادة في براعة الصيد لدى أسلافنا البدائيين، ما كشف لنا شيئاً عن الإتقان مثلما هي الحال اليوم؛ ففي أثناء دراستهم أدمغة القرود وجدوا أن

عصبونات مُحدّدة من عصبونات التحكم الحركي تنشط وتتقد ليس فقط حين تُنفذ - تحديداً - فعلاً معيّنًا، مثل سحب رافعة للحصول على الفول السوداني، أو الاستحواذ على موزة، وإنما عند مشاهدة قرود أخرى وهي تقوم بأفعال مشابهة أيضًا. عندئذٍ، أطلقوا على هذه الخلايا العصبية اسم العصبونات المرأة. ما يعنيه هذا النشاط العصبوني هو أن هذا الإحساس الذي يتولّد لدى القردة من مشاهدة فعل معيّن يطابق الإحساس الذي يتولّد لديها من القيام بالفعل نفسه، وهو ما يسمح لها في أن تضع نفسها مكان هذه القردة، وإدراك تحركاتها كما لو كانت هي التي تقوم بالفعل، ما يُفسّر قدرة كثير من الرئيسيات على تقليد غيرها، ويُفسّر أيضًا القدرات الواضحة للشمبانزي فيما يخص توقّع خطط منافسيها وأفعالهم. إن هذه الخلايا العصبية (العصبونات) - بحسب توقّعات هؤلاء العلماء - تطوّرت بسبب الطبيعة الاجتماعية لحياة الرئيسيات.

وفي السياق نفسه، فقد أثبتت التجارب الحديثة وجود مثل هذه الخلايا العصبية في البشر، ولكن على مستوى أعلى بكثير من التعقيد. فالقرد أو أحد أفراد الرئيسيات يمكنه أن يرى الفعل من وجهة نظر الفاعل ويتصوّر نواياه، ولكننا - نحن البشر - نستطيع أن نأخذ هذه العملية إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إننا - من دون الحاجة إلى إشارات بصرية أو حركية من الآخرين - نستطيع أن نضع أنفسنا مكان الآخرين، وأن نتخيّل ما يفكّرون به.

لقد مكّن تطوير العصبونات المرأة أسلافنا من فهم الواحد منهم رغبات الآخر عن طريق أدقّ الإشارات وألطفها، ما سمح لهم بتحسين مهاراتهم الاجتماعية، فضلًا عن أنها كانت عنصرًا مهمًّا في صنع الأدوات؛ فالواحد يمكنه أن يتعلّم تصميم أداة ما عن طريق تقليد الخبراء في عملهم، ولعلّ الأهم من ذلك كله هو أن تلك العصبونات منحتم القدرة على التفكير «داخل الأشياء» التي من حولهم؛ فبعد سنوات من دراسة حيوانات معيّنة تمكّن الأسلاف من مشاكلها، وإدراك طريقة تفكيرها، وتوقّع أنماطها السلوكية، ما زاد قدرتهم على تعقّب الفريسة وقتلها. هذا التفكير «داخل الشيء» يمكن تطبيقه على الأشياء غير العضوية أيضًا؛ ففي تشكيل الأدوات المصنوعة من الحجارة، كان خبراء صناعة الأدوات يشعرون أنهم في وحدة وجود مع الأدوات التي يصنعونها، وكأنّ تلك الأدوات التي شكّلوها

من حجر أو خشب أصبحت امتداداً لأيديهم، ويشعرون بها أيضاً كما لو كانت قطعة من أجسادهم، ما يمنحهم سيطرة كبيرة عليها؛ سواء في صنعها، أو في استخدامها.

إن قوة العقل هذه لا يمكن أن ينطلق لها العنان إلا بعد سنوات من الخبرة؛ أي بعد إتقان مهارة معينة، مثل تتبع الفريسة واصطيادها وصنع الأدوات، وتصبح تلقائية بحيث إن الشخص الذي يمارس هذه المهارة لا يكون عقله بحاجة إلى التركيز على الإجراءات التفصيلية فيها، ولكنه يُركّز - بدلاً من ذلك - على شيء أكثر أهمية: ما الذي ستفعله الفريسة؟ كيف يشعر بالأداة كأنها جزء من يده؟ إن هذا التفكير في «داخل الشيء» هو في حكم المرحلة السابقة لتعلم اللغة، الممهدة للمستوى الثالث من الذكاء؛ أي ما يعادل نظيراً بدائياً لشعور ليوناردو دافينشي الحدسي بعلم التشريح والمشاهد الطبيعية، أو شعور مايكل فارداي الحدسي بالكهرومغناطيسية. فالإتقان وفقاً لهذا المستوى يعني أن أسلافنا كانوا قادرين على اتخاذ قرارات بسرعة وفاعلية بعدما اكتسبوا فهمًا كاملاً لبيئتهم وفرائسهم. ولولا تطوّر هذه المكنة ما استطاعت عقول أسلافنا معالجة الكمّ الهائل من المعلومات التي تتدفق عليها في عملية مطاردة ناجحة لصيد الفريسة. لقد طوّروا هذه القدرة الحدسية قبل اختراعهم اللغة بمئات الآلاف من السنين، وهذا السبب في أننا حين نمارس هذا الذكاء يبدو لنا كأنه شيء من عصر ما قبل الكلام؛ إنه قدرة تتجاوز قدرتنا على التعبير عنه بالكلمات.

تذكّر: إن هذه المدة الطويلة من الزمن كان لها دور حاسم في النمو العقلي للإنسان؛ إذ إنها غيّرت تغييراً جذرياً علاقتنا بالوقت؛ ذلك أن الزمن بالنسبة إلى الحيوانات هو عدوّها الكبير؛ فهي إذا كانت فريسة مطلوبة تجول في الأرض وقتاً طويلاً فإن ذلك يعني الموت المحتم لها، أمّا إذا كانت مفترسة فإن الانتظار وقتاً طويلاً لا يعني سوى هروب فريستها، وينذرُ مرور الوقت أيضاً بتلف أجسامها. وفي المقابل، فإن أسلافنا الصيادين قلبوا هذه العملية رأساً على عقب بصورة لافتة، فكانوا كلما أمضوا مزيداً من الوقت في مراقبة شيء ما تعمّق فهمهم واتصالهم بالواقع، ومع الخبرة تقدّمت مهاراتهم في الصيد، وبالممارسة المستمرة تحسّنت قدراتهم على صنع أدوات فاعلة. صحيح أن الجسم يتعرّض

للتلف بمرور الوقت، ولكن العقل يواصل التعلُّم والتكْيُف؛ لذا فإن استخدام الوقت في هذه الحالة يُعدُّ العنصر الرئيس للإِتقان.

في الواقع، يمكننا القول إن هذه العلاقة المبتكرة تجاه الزمن أدَّت إلى تغيُّر جذري في العقل البشري نفسه، ومنحته ميزةً مُحدَّدةً أو استعداداً فطرياً؛ فحين نمضي أوقاتنا في التركيز عميقاً، وحين تكون لدينا ثقة بأن ما نمضيه من شهور وسنين في هذه العملية سيُحقِّق لنا الإِتقان، فإننا بذلك نعمل بتناغم مع هذه الميزة الرائعة التي تطوَّرت على مدى ملايين السنين، ونرتقي بطريقة لا يشوبها خطأً إلى مستويات عليا من الذكاء وإلى ما هو أعلى منها، وننظر إلى الأشياء على نحوٍ أكثر عمقاً وواقعيةً، ونصنع الأشياء بمهارة فيما نمارسه من مهن، ونتعلم كيف نفكر لأنفسنا، ونصبح قادرين على التعامل مع المواقف المعقَّدة من دون أن نشعر بالارتباك وقلة الحيلة. وبتابع هذا الطريق أصبح الواحد، رجلاً كان أم امرأة، إنساناً رئيساً متقناً.

وبالقدر الذي نعتقد فيه أنه يمكننا اختصار الخطوات، وتجنُّب هذه العملية، لكي نكتسب القوة بطريقة سحرية عن طريق علاقاتنا السياسية أو الوصفات السهلة، أو اعتماداً على مواهبنا الطبيعية، فإن حركتنا تكون خلاف هذه الميزة، ويكون عملنا على النقيض من قوتنا الطبيعية، ونصبح عبيداً للوقت. فبمروره نزداد ضعفاً، وتتضاءل قدراتنا، ونبقى محصورين في وظيفة مغلقة لا نراوح فيها مكاننا، ونتحوّل إلى رهينة لآراء الآخرين ومخاوفهم، وبدلاً من أن يربطنا العقل بالواقع، نصبح منفصلين عن محيطنا، ومحبوسين في حجرة ضيقة من الفكر، ويتحوّل الإنسان الذي اعتمد على تركيز الاهتمام من أجل بقائه إلى مخلوق مُشتَّت الذهن هائماً يجول ببصره الأفق، غير قادر على التفكير بعمق، أو الاعتماد على غرائزه.

إنه لمن قمة الغباء اعتقاد المرء أنه يستطيع في حياته القصيرة (في بضعة العقود القليلة التي يعيشها في حالة الوعي) أن يعيد مرةً أخرى ترتيب إعدادات العقل البشري وطريقة عمله بوساطة التقنية الحديثة أو التمني، متجاوزاً تأثير ستة ملايين سنة من التطوُّر الذي طرأ عليه. إن السير في الاتجاه المعاكس لهذه الميزة (الاستعداد) قد يجلب تشتُّتاً مؤقتاً، ولكن الوقت سيكشف بلا رحمة ضعف هذا الإنسان ونفاد صبره.

إن الخلاص العظيم بالنسبة إلينا جميعاً هو أننا ورثنا أداة رائعة طيِّعة مرنة؛ فقد نجح أسلافنا الذين عاشوا على الصيد والجمع - على مدار الساعة- في تشكيل الدماغ وفق شكله الحالي، وذلك عن طريق إيجاد ثقافة قادرة على التعلُّم والتغيير والتكيف مع الظروف؛ ثقافة ليست رهينة للمسيرة المتباطئة جداً لعملية التطوُّر الطبيعي، إن أدمغتنا - بوصفنا بشراً معاصرين- لا تختلف في قوتها ومرونتها عن أدمغة أسلافنا؛ إننا نملك في أيِّ لحظة أن نختار التحوُّل في علاقتنا بالزمن، وأن نسير مع «الميزة»، مدركين وجودها وقوتها. وحين يعمل عنصر الوقت إلى جانبنا يمكننا قلب العادات السيئة والسلبية، والارتقاء في سلّم الذكاء.

ختاماً، يتعيَّن عليك النظر إلى هذا التحوُّل بوصفه عودةً إلى جذورك الإنسانية في الماضي السحيق، واتصلاً بأسلافك الصيادين الجامعين، وحفاظاً على هذه الاستمرارية العظيمة بهم في العصر الحديث. صحيح أننا قد نختلف عنهم في البيئة التي نعمل فيها، ولكن دماغنا هو في الأساس واحد من حيث قدرته على التعلُّم، والتكيف، وإتقان التعامل مع الوقت.

مفاتيح الإتقان*

«يتعيَّن على المرء أن يتعلَّم استكشاف وميض النور الذي يبرق في عقله من الداخل أكثر من بريق سماء شعراء الملاحم والحكماء ومراقبته، في الوقت الذي يرفض فيه - من دون وعي- أفكاره لا لشيء سوى أنها أفكاره. إننا نرى في كل عمل من الأعمال العبقريّة صورة من أفكارنا التي سبق أن رفضناها، ولكنها عادت بهيبةٍ من انتصر بعد خذلان».

- رالف والدو إمرسون

إذا كنّا جميعاً نولد بدماع واحد في جوهره، وتطابق قد يزيد أو ينقص قليلاً في التركيبة والاستعداد للإتقان، فلماذا لا نجد في التاريخ سوى عدد محدود من الناس برعوا حقاً واستطاعوا تحقيق هذه القدرة الكامنة؟ إن هذا السؤال - عملياً- هو الأكثر أهمية بالنسبة إلينا في أن نجيب عنه ولا شك.

* بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ المؤمنون: ١٢ - ١٤

إن التفسيرات الشائعة لموزارت أو ليوناردو دافينشي تدور حول المواهب الطبيعية والعبقرية، فكيف يمكن تفسير إنجازاتهم الخارقة إلا بالقول إن شيئاً ما وُلِدَ معهم؟ ولكن ثمة آلاف مؤلفة من الأطفال الذين يُظهرون مهارات استثنائية ومواهب بارعة في بعض الحقول، بيد أن عدداً قليلاً نسبياً منهم يُدعى ويأتي بشيء يشار إليه بالبنان، في حين نجد أن مَنْ كانوا أقل منهم موهبة في صغرهم قد سبقوهم - في كثير من الأحوال - في بلوغ الشيء الكثير. إذن، الموهبة الطبيعية أو معدل الذكاء المرتفع لا يمكنهما تفسير الإنجاز في المستقبل.

تتكرر العناصر الأساسية لهذه القصة في حياة كل الذين برعوا في مجالاتهم وبلغوا مرتبة الإتقان على مر التاريخ: شغف أو ولع في مرحلة الصبا، وفرصة مواتية تسمح لهم باكتشاف كيفية وضع هذا الشغف موضع التنفيذ، وتلمذة تبعث فيهم النشاط بهمة وتركيز. لقد برزوا بقدرتهم على خوض أصعب الممارسات والتحرك سريعاً في هذه العملية، وهذا كله نابع من شدة رغبتهم في التعلُّم، ومن ارتباطهم العميق بمجال دراستهم. ويقع في جوهر هذه الكثافة من الجهد خصيصة هي - حقيقةً - وراثية فطرية، وليست من قبيل الموهبة أو الذكاء، وهما ما يجب تمييزه في الأحوال جميعها، ولكن ما نغنيه بهذه الخصيصة هو الميل الشديد إلى موضوع مُحدَّد.

إن هذا الميل هو صورة لتفرد الشخص، وهذا التفرد ليس فقط شيئاً رومانسياً أو فلسفياً؛ إذ تقول الحقيقة العلمية إن كل واحد منّا هو فريد في نوعه؛ فالتركيب الجينية المُحددة لكل إنسان لم تحدث لأحد غيره قط، ولن تتكرر في المستقبل أبداً. يظهر هذا التفرد بتوجهاتنا وميولنا الفطرية نحو أنشطة أو حقول دراسية مُحددة، وقد تكون هذه الميول موجّهة نحو الموسيقى، أو الرياضيات، أو بعض الأنشطة الرياضية، أو الألعاب، أو حلّ الألغاز والأحاجي، أو إصلاح الأجهزة والآلات وتفكيكها وإعادة تجميعها، أو اللعب بالكلمات.

من الملاحظ أن الذين برزوا وبلغوا مرحلة الإتقان لاحقاً خبروا هذا الميل على نحوٍ أكثر عمقاً ووضوحاً من غيرهم، لقد جرّبوه بوصفه نداءً داخلياً؛ فهو ميل ينزع إلى السيطرة على أفكارهم وأحلامهم، ثم وجدوا طريقهم - مصادفةً، أو ببذل جهد كبير - إلى مسار وظيفي كوّن بيئة مناسبة لازدهار هذا الميل. لقد مكّنهم هذا الارتباط العميق والرغبة الجامحة من تحمّل عناء العملية، بدءاً بالشكوك الذاتية، وانتهاءً بالساعات الرتيبة في

الممارسة والدراسة، ومن النكسات التي لا مفر منها، إلى الانتقادات اللاذعة المتواصلة من الحاسدين. لقد طوّروا قدرة على المرونة والتحمل والثقة يفتقر إليها الآخرون.

إننا نميل في ثقافتنا إلى ربط القدرات الفكرية والذهنية بالنجاح والإنجاز، ومع ذلك -ومن نواحٍ كثيرة- نجد أن الميزة العاطفية هي التي تفصل بين أولئك الذين أتقنوا حقلًا ما عن الذين يكتفون بالقيام بالوظيفة، وفي نهاية المطاف تكون مستويات رغبتنا، وصبرنا، ومثابرتنا، وثقتنا هي صاحبة الدور الأكبر في النجاح من القدرات المنطقية المحضة. إن الشعور بالتحفيز والنشاط يجعلنا نتغلب على أي شيء تقريبًا، أمّا الشعور بالملل وضيق الصدر فإنه يغلق عقولنا، ويبعث فينا الروح السلبية على نحوٍ متزايد.

في الماضي، كان أبناء النخب أو الأشخاص الذين يتمتعون بطاقات بشرية استثنائية هم فقط الذين يمكنهم الحصول على مهنة من اختيارهم والاستمرار فيها وإتقانها؛ فالشخص إمّا أن يولد في الجيش، وإمّا أن يُهيأ للعمل في الحكومة، فيجري اختياره من بين أبناء الطبقة الصحيحة، وإذا حدث أن أظهر موهبة ورغبة في هذا العمل، فإن ذلك يكون بمحض المصادفة؛ لهذا استُبعد استبعادًا صارمًا الملايين من عموم الناس الذين لم يكونوا جزءًا من الطبقة الاجتماعية الصحيحة، أو الجنس، أو المجموعة العرقية، من إمكانية السعي لتحقيق رغبتهم وأداء رسالتهم. حتى لو أراد الأشخاص اتباع ميولهم، فإن مفاتيح الوصول إلى المعلومات والمعرفة المتعلقة بالمجال الذين يرغبون فيه كانت بيد النخب، وهذا يُفسّر سبب وجود عدد قليل نسبيًا من حملة رتبة «الرئيس» في المهن قديمًا، وفي بروزهم الواضح من بين عامة الناس.

لقد اختفت معظم هذه الحواجز الاجتماعية والسياسية. وبين أيدينا اليوم من المعلومات والمعارف ما لم يكن يحلم بالوصول إليه رؤساء المهن في الماضي، ولدينا الآن أكثر من أي وقت مضى القدرة والحرية للتحرك نحو ميولنا التي يملكها كل واحد منّا؛ لأنها جزء من تفرّدنا الوراثي. لقد حان الوقت الذي تصبح فيه كلمة «عبقري» منزوعة من الأوهام والغموض، ويخرج بها الوصف من دائرة الندرة النادرة إلى الشيوع. إننا جميعًا أقرب مما نعتقد إلى مثل هذا الذكاء (كلمة «عبقري» مشتقة من اللغة اللاتينية، وكانت تشير أصلًا

إلى الروح التي تحرس الشخص منذ ولادته، ثم تحوّل المعنى لاحقاً للدلالة على السمات الفطرية التي تجعل كل شخص موهوباً بصورة فريدة).

بالرغم من أننا قد نجد أنفسنا في لحظة تاريخية غنية بفرص تحقيق الإتقان، بحيث يتمكن المزيد والمزيد من الناس من التحرك نحو ميولهم، فإننا - حقيقةً - نواجه عقبة واحدة أخيرة تحول دون تحقيق هذه القدرة، هي العقبة الثقافية التي تنطوي على خطر ممزوج بخبث؛ إذ إن مفهوم الإتقان أصبح اليوم مصطلحاً مشوّه السمعة، ومرتبباً بالطراز القديم، بل كريهاً، ولم يعد يُنظر إليه عمومًا بوصفه الشيء الذي يطمح إليه المرء. إن هذا التحوّل في القيمة جاء متأخرًا نوعًا ما، وقد يُعزى إلى الظروف الخاصة بعصرنا الحديث.

إننا نعيش في عالم متسارع يبدو أنه خارج عن سيطرتنا؛ فُسبِل عيشنا محكومة بنزوات قوى العولمة، والمشكلات التي نواجهها؛ اقتصادية كانت أو بيئية وغيرها لا يمكن حلها بإجراءات فردية منّا، والساسة الذين يحكموننا هم بعيدون عنّا، ولا يستجيبون لرغباتنا.

أمّا الردّ الطبيعي لعموم الناس حين يشعرون بقلّة الحيلة فهو الانكفاء إلى أشكال مختلفة من السلبية؛ فإذا لم نحاول كثيرًا في الحياة، وضيّقنا دائرة نشاطنا، فإننا نستطيع أن نوهم أنفسنا بالسيطرة على الأمور. وكلما قلّت محاولتنا قلّت فرص الفشل، وإذا استطعنا أن نغضّ الطرف عن واقعنا المعيش، وننظاها أننا غير مسؤولين حقًا عن مصيرنا، وعمّا يحدث لنا في الحياة، فإن عجزنا الواضح سيكون أكثر قبولًا؛ ولهذا السبب تجدنا ننجذب إلى سرد مُحدّد: إن الجينات الوراثية هي التي تُحدّد الكثير مما نقوم به؛ إننا فقط نتاج عصرنا، والفرد هو أسطورة فحسب، وإن السلوك البشري يمكن اختزاله إلى اتجاهات إحصائية.

يأخذ الكثيرون هذا التغيير خطوة أبعد في محاولة منهم لوضع طلاء إيجابي على سلبيتهم، فتجدهم يُبجّلون الفنان الذي يقوم بأعمال مهلكة للنفس، ويفقد السيطرة على نفسه. فأَيُّ شيء ينم عن الانضباط أو الجهد يبدو تافهًا وباليًا من مخلفات الماضي؛ إن ما يهم هو الشعور وراء العمل الفني، وأَيُّ إشارة إلى الحرفية أو العمل هي انتهاك لهذا المبدأ. فأصبحت تلك الفئة تقبل بالأشياء التي تصنع بسرعة وتكلفة زهيدة، أمّا الفكرة التي مفادها أن حصول المرء على ما يريد يُحتّم عليه بذل الجهد فقد تلاشت بسبب انتشار الأجهزة التي تؤدّي الكثير من العمل بالنسبة إليهم، مُتبنّين - بدلًا من ذلك - فكرة أنهم يستحقون

ذلك كله؛ لأنه من جوهر حقهم الطبيعي امتلاك كل ما يريدون واستهلاكه. «لماذا تحمل
عناء العمل سنوات لتحقيق الإتقان في حين يمكنك الحصول على القوة كلها بأدنى قدر من
الجهد؟ التكنولوجيا سوف تحل كل شيء». لقد باتت هذه السلبية موقفاً أخلاقياً. «إن الإتقان
والسلطة من مظاهر الشر؛ إنهما مجال النخب السلطوية التي ما برحت تقمعنا وتضطهدنا.
السلطة سيئة بطبيعتها، والأفضل هو التخلص من هذا النظام تماماً»، أو جعله - على الأقل -
يبدو كذلك.

إذا لم تكن حذراً ستجد أن عدوى هذه المواقف والتوجهات قد أصابتك بطرائق خفية
من حيث لا تدري، وستخف - من دون وعي - نظرتك إلى ما يمكنك إنجازه في الحياة، ما
يقلل من مستويات الجهد والانضباط إلى ما هو أدنى من نقطة الفاعلية والنجاح. وتناغماً
مع المعايير الاجتماعية، فإنك ستستمع للآخرين أكثر من استماعك لصوتك، وربما تختار
مساراً وظيفياً بناءً على ما يقوله لك أقرانك أو والداك، أو تأسيساً على ما يبدو أنه أكثر
إدراكاً للمال. علماً بأن فقدانك الاتصال بنداك الباطني لا يمنع من تحقيق بعض النجاح
في الحياة، ولكن - في نهاية المطاف - سيدرك انعدام الرغبة الحقيقية، ويصبح عملاً
آلياً رتيباً، وتكون حياتك مخصصة لقضاء وقت الفراغ والملذات العاجلة. وبهذه الطريقة
ستوغل في السلبية، ولن تتجاوز المرحلة الأولى، وقد يزداد إحباطك وشعورك بالاكئاب، من
دون أن يخطر على بالك أن مصدر ذلك كله هو ابتعادك عن إمكاناتك الإبداعية الخاصة.

لهذا، يتعين عليك إيجاد الطريق إلى ميولك الخاصة قبل فوات الأوان، واستغلال
الفرص المدهشة لهذا العصر الذي وُلدت فيه. إن معرفتك الأهمية الحاسمة للرغبة
واتصالك العاطفي بالعمل الذي تقوم به (هما مفتاحا الإتقان) ستمكنك - حقيقةً - من
جعل سلبية هذه الأوقات تعمل لصالحك بحيث تكون مُحفِّراً لك من ناحيتين مهمتين:

الأولى: يجب أن تنظر إلى محاولتك تحقيق الإتقان بوصفها أمراً إيجابياً وضرورياً
جداً. فالعالم من حولنا يعج بالمشكلات، والكثير منها هو من صنع أيدينا، وإن حلها يتطلب
قدراً هائلاً من الجهد والإبداع. علماً بأن الاعتماد على الوراثة، أو التكنولوجيا، أو السحر،
أو الدماثة والتلطف لن يُجدي نفعاً. فنحن بحاجة إلى الطاقة ليس فقط لمعالجة المسائل
العملية، وإنما لإقامة مؤسسات ونظم تناسب ظروفنا الجديدة المتغيرة؛ لذا يجب علينا أن

نُشِئَ عالمنا وإلا سَنَموت من التقاعس عن العمل. إننا بحاجة إلى إيجاد طريق العودة إلى مفهوم الإتقان الذي حدّد نوعنا وميّزه قبل ملايين السنين. وهذا الإتقان ليس الهدف منه الهيمنة على الطبيعة أو على الناس الآخرين، بل تحديد مصيرنا. وفي هذا السياق، فإن الموقف السلبي الساخر ليس لائقًا ورومانسيًا في هذا الظرف، بل مهلكًا ومثيرًا للازدراء. إنك تضع مثالًا لما يمكن تحقيقه بوصفك عنصرًا متقنًا في العالم الحديث، وتُسهم في أهم قضية بالنسبة إلينا جميعًا، وهي بقاء الجنس البشري وازدهاره في زمن الركود.

الثانية: يجب أن تقنع نفسك بما يأتي: إن ما يحصل عليه الناس من عقل ونوعية دماغ هو ما استحقوه بأفعالهم في الحياة، وبالرغم من شيوع التفسيرات الجينية (الوراثية) لسلوكنا، فإن الاكتشافات الحديثة في علم الأعصاب قد قلبت رأسًا على عقب المعتقدات الراسخة منذ مدة طويلة من أن دماغ المرء قد أُحكِم ضبطه مُدَّ كان جنيًا بفعل المؤثرات الوراثية. وقد أثبت العلماء أن الدماغ البشري يتسم بالليونة؛ أي إن أفكارنا هي التي تُحدِّد المشهد الذهني. ولا يزال العلماء يستكشفون علاقة قوة الإرادة بعلم وظائف الأعضاء، وكيف يُؤثر العقل تأثيرًا عميقًا في الصحة ووظائف الجسم. ومن المرجح اكتشاف المزيد عن عمق الأنماط المختلفة لحياتنا التي نوجدها عن طريق عمليات عقلية مُحدّدة؛ فنحن حقًا مسؤولون عن الكثير مما يحدث لنا.

بوجه عام، إن الأشخاص الذين تغلب عليهم السمة السلبية يرسمون في عقولهم مشهدًا ذهنيًا كئيبيًا بلغمًا. ونظرًا إلى ضآلة خبراتهم وأنشطتهم؛ فإن مختلف أنواع الارتباطات في الدماغ تموت من قلة الاستخدام. ولدفع هذا التوجه السلبي السائد في هذا الزمان ومقاومته، يتحتم عليك بذل ما في وسعك لكي ترى إلى أي مدى يمكنك توسيع نطاق سيطرتك على الظروف المحيطة بك وإيجاد نوع العقل الذي تتمناه؛ لا عن طريق العقاقير، بل عن طريق العمل. إن إطلاق العنان للعقل البارع في داخلك سيضعك في طليعة الذين يستكشفون الحدود الممتدة من قوة الإرادة البشرية.

يمكن النظر إلى الانتقال من أحد مستويات الذكاء إلى المستوى الذي يليه بوصفه نوعًا من طقوس التحوّل. فمع تقدّمك وارتقائك تتلاشى الأفكار ووجهات النظر القديمة لحظة انطلاق القوى الجديدة، إذ إننا بارتقائك إلى مستويات أعلى فيما يخص رؤية العالم.

ولك أن تُعدَّ كتاب (الإتقان) أداة لا تُقدَّر بثمن تساعدك على اجتياز مراحل هذه العملية التحويلية. لقد ألفتُ هذا الكتاب ليكون مرشداً لك في الانتقال من أدنى المستويات إلى أعلاها، ويساعدك على اتخاذ الخطوة الأولى، وهي اكتشاف رسالتك في الحياة، ومهارتك الطبيعية، وندائك الداخلي، وكيف تشق الطريق الذي سيوصلك إلى تحقيقها في مختلف المراحل. وهو أيضاً يُقدِّم لك النصح بخصوص كيفية الاستفادة من مرحلة التلمذة على أكمل وجه، وكذا إستراتيجيات المراقبة والتعلم المتنوعة التي تُقدِّم لك أفضل خدمة في هذه المرحلة: كيف تعثر على أفضل المرشدين والموجهين؟ كيف تفك الرموز غير المكتوبة في السلوك السياسي؟ كيف تُعزِّز ذكاءك الاجتماعي؟ كيف تعرف أنه حان الوقت لمغادرة عش التلمذة لتنتقل وحدك وتدخل مرحلة الإبداع الفاعلة.

سيريك الكتاب كيف تستمر في عملية التعلم ضمن مستوى أعلى، ويكشف لك عن إستراتيجيات دائمة لإيجاد حلٍّ للمشكلات؛ لكي تحافظ على مرونة عقلك وقابليته للتكيف. يساعدك الكتاب أيضاً على تعرُّف كيفية الوصول إلى المزيد من طبقات الذكاء اللاشعورية والبدائية، وكيفية تحمُّل انتقادات الحُساد اللاذعة الحتمية التي ستعترض طريقك، ويفصح لك عن القوى التي ستصبح طوع إرادتك بفضل الإتقان، مُصوِّباً مسيرك نحو الاتجاه الحدسي، والشعور الداخلي لمجال عملك. وأخيراً، فإنه سيضعك على درب فلسفة وطريقة في التفكير تُسهِّل عليك اتباع هذا المسار.

ترتكز الأفكار الواردة في هذا الكتاب على بحوث واسعة النطاق في مجال علوم الأعصاب والإدراك، ودراسات الإبداع، فضلاً عن السير الذاتية لأعظم الذين برعوا في حقولهم على مرِّ التاريخ. وتشمل هذه القائمة ليوناردو دافينشي، وهاكوبين أحد أقطاب طائفة الزن اليابانية، وبنيامين فرانكلين، وولفغانغ أماديوس موزارت، ويوهان فولفغانغ فون غوته، والشاعر جون كيتس، والعالم مايكل فارداي، وتشارلز داروين، وتوماس أديسون، وألبرت آينشتاين، وهنري فورد، والكاتب مارسيل بروست، والمخترع بكمنستر فولر، وعازف موسيقى الجاز جون كولترين، وعازف البيانو غلين غولد.

ولتوضيح كيفية تطبيق هذا النوع من الذكاء في العالم الحديث، فقد أجريت مقابلات مطوّلة مع تسعة من رؤساء الفنون المعاصرين، هم: عالم الأعصاب فيلا نور إس راماشاندران، والعالم اللغوي الأنثروبولوجي دانيال إيفريت، ومهندس الحاسوب والكاتب والعقل التكنولوجي الموجه بول غراهام، والمهندس المعماري سانتياغو كالاترافا، والملاكم السابق والمُدرب الحالي فريدي روتش، ومهندسة الروبوتات ومُصمّمة التكنولوجيا الخضراء يوكي ماتسوكا، والفنانة التشكيلية تيريسيتا فرنانديز، وأستاذة تربية الحيوانات المُصمّمة الصناعية تمبل غراندن، وطيار سلاح الجو الأمريكي الحاصل على مرتبة الآس سيزار رودريغز.

إن قصص حياة هذه الشخصيات المعاصرة المتنوعة تُبَدِّد الاعتقاد الشائع بأن الإتيقان هو مفهوم قديم بائد، أو أنه خاص بطبقات النخبة. فهذه الشخصيات تتحدر من مجتمعات، وطبقات اجتماعية، وأعراق، مختلف بعضها عن بعض. والسلطة التي استطاعوا تحقيقها مردها - بكل وضوح- الجهد والممارسة، لا الوراثة أو الحظوة. وتكشف قصصهم أيضاً كيف يمكن تبني هذا الإتيقان في عصرنا الحاضر، والقوة الهائلة التي قد يجلبها لنا.

جاء تقسيم الكتاب مبسّطاً؛ إذ اشتمل على ستة فصول تنقل بالترتيب مراحل هذه العملية. فالفصل الأول هو نقطة البداية: اكتشاف رسالتك الذاتية، ومهمة حياتك. والفصول الثاني، والثالث، والرابع تناقش العناصر المختلفة لمرحلة التدريب المهني: مهارات التعلم، والعمل مع المرشدين، وتحصيل الذكاء الاجتماعي. أمّا الفصل الخامس فخصّص لمرحلة الإبداع الفاعل، في حين تعرّض الفصل السادس للهدف النهائي، وهو بلوغ مرحلة الإتيقان. يبدأ كل فصل بقصة عن شخصية تاريخية مبدعة تُمثّل المفهوم العام للفصل. أمّا القسم الذي يتبعه (مفاتيح الإتيقان) فيحتوي على تحليل مفصّل للمرحلة المعنية، وأفكار مُحدّدة بخصوص كيفية تطبيق هذه المعرفة على أحوالك وأوضاعك، والوضعية العقلية الضرورية لاستغلال هذه الأفكار أحسن استغلال. يتبع ذلك قسم يبحث مفصّلاً في إستراتيجيات أصحاب الرياسة المعاصرين والسالفين الذين استخدموا أساليب مختلفة للمضي قدماً في هذه العملية. وتهدف هذه الإستراتيجيات إلى تقديم أكبر قدر ممكن من فحوى التطبيق العملي للأفكار الواردة في الكتاب، وحفزك إلى اتباع خطى هؤلاء الرؤساء، بما يُظهر بوضوح كيف أن ما اكتسبوه من قوة يمكنك تحقيقه.

سيلاحظ القارئ أن قصص أصحاب الرياسة المعاصرين جميعاً وبعض التاريخيين تستمر في عدة فصول. ولهذا فقد يوجد تكرار طفيف من معلومات السيرة الذاتية لتلخيص ما حدث في المرحلة السابقة من حياتهم، وسيشار إلى أرقام الصفحات بين قوسين للدلالة على السرد السابق.

وأخيراً، يجب ألا تنظر إلى عملية الانتقال خلال مستويات الذكاء بوصفها مستويات خطية تتابعية فقط، الهدف منها الوصول إلى ما يشبه الوجهة النهائية المعروفة باسم الإتقان. إن الحياة كلها نوع من التدريب والتلمذة المهنية التي تُمارس بها ما تكتسبه من مهارات. وكل ما يحدث لك هو شكل من أشكال التعلُّم إذا كنت توليه انتباهك، والإبداع الذي تكتسبه من عمق تعلُّمك لمهارة ما يجب أن يخضع للتحديث باستمرار، مع الاستمرار في إجبار عقلك على العودة إلى حالة من الانفتاح. وحتى معرفتك المهنية يجب أن تخضع باستمرار إلى إعادة النظر طوال حياتك مثلما تجبرك الظروف المتغيرة على التكيف مع اتجاهها.

إنك في توجُّهك نحو الإتقان تكون قد اقتربت بعقلك من الواقع والحياة نفسها. فكل شيء حي في هذا الكون هو في حالة مستمرة من التغيُّر والحركة. وما إن تأتي اللحظة التي تظن فيها أنك قد بلغت المستوى الذي تريد وتقرُّر الخلود إلى الراحة، حتى يدخل جزء من عقلك مرحلة من الاضمحلال، وتبدأ بفقدان إبداعك الذي اكتسبته بعد طول عناء وجهد، وسيشعر الآخرون من حولك بذلك. إننا أمام قوة وذكاء يتطلَّبان التجديد باستمرار، وإلا فإنهما سيؤولان إلى النضوب والزوال.

«لا تتحدث عن الموهبة، ولا عن المَلَكات الفطرية! يمكن للمرء أن يُسمِّي رجالاً عظماءً من كل صنف ممن كانوا قليلي الموهبة. ولكنهم اكتسبوا العظمة، وصاروا عباقره (مثلما نصفهم اليوم) بفضل بعض الصفات والخصائص التي لا يرغب أحد في الحديث عن نقصها حين يكون واعياً بذلك النقص. لقد ملكوا مثابرة العامل الفاعل الذي تعلَّم أولاً تركيب الأجزاء الصغيرة بصورتها الصحيحة قبل أن تُكوَّن الكُل الكبير. لقد أعطوا أنفسهم وقتاً كافياً لتعلُّم ذلك؛ لأنهم كانوا أكثر استمتاعاً بعمل الأشياء الصغيرة، وإتقان الأمور الثانوية من التأثير المبهر للكل.»